حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين
بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة

د- حنيفي هلايلي

جامعة سيدي بلعباس

استمر الوجود الإسلامي في شبه جزيرة ايبيريا على طول أكثر من تسعة قرون متتالية. وقد كان هذا الوجود مصحوبا بقوة سياسية عسكرية طوال القرون الثمانية الأولى(منذ فتح الأندلس سنة 92هـ/711م حتى سقوط غرناطة في سنة 897هـ/1492م)، ثم أصبح هذا الوجود متمثلا في بقاء مجموعات كبيرة من المسلمين منتشرة في شتى أنحاء اسبانيا حاملة تسميات مختلفة : المدجنين **Mudejares**أولاً ثم الموريسكيين **Moriscos**بعد ذلك[1].

و لم يكن لهؤلاء سلطة سياسية ترعى شؤونهم، و إنما ظلوا مجرد رعايا يخضعون للسلطة المسيحية و يتعرضون لشتى ضروب الاضطهاد، حتى صدرت ضدهم في النهاية قوانين الطرد الجماعي فيما بين سنتي 1609-1614م، و حتى بعد هذا التاريخ بقيت مجموعات كبيرة من هؤلاء الموريسكيين متظاهرة بالتنصر و إن احتفظت بعقيدتها الإسلامية في الباطن. و يدل على ذلك ما احتفظت لنا به وثائق كثيرة لمحاكمات قام بها ديوان التفتيش **Inquisicion** ضد من اتهموا بالحفاظ على

---

[1] حدد المؤرخ الإسباني ميكال دي إيبالزا ، وجود ثلاثة مراحل للإطار الديني و الإجتماعي للأندلسيين من وجهة نظر القانون الإسباني، و يشمل المراحل التالية:

- مرحلة المدجنين: قبل التعميد القسري(1502-1525).
- المرحلة الموريسكية: اعتبر فيها المسلم منصراً أو مسيحيا رديئاً و نعتتهم الكنيسة بالهراطقة(mauvais chrétiens).
- مرحلة الطرد النهائي(1609-1614). و هي مرحلة عودة الأندلسيين إلى ديار الإسلام. للمزيد راجع :

حنيفي ،هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 1999، ص ص 15-17.

الإسلام وراء ستار من اصطناع المسيحية. و ترجع آخر وثائق هذه المحاكمات إلى تاريخ سنة 1729[2].

سقطت غرناطة –آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- سنة (897 هـ=1492م)، وكان ذلك نذيرًا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي، وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التحقيق (التفتيش)؛ لتطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

أولاً : محاكم التفتيش: المراقبة و التعذيب.

ظهرت فكرة تأسيس محاكم التفتيش[3] منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، حيث كان البابوات يعهدون إلى الأساقفة بمعاقبة المارقين والملحدين. تأسست هذه الدواوين في أسبانيا خلال عهد الملكيين الكاثوليكيين إيزابيلا و فردينا ندو(1474-1516). فكانت أول المحاكم في إشبيلية و قرطبة وجيان وبلد الوليد سنة 1482، و التي تابعت اليهود و فرضت عليهم التنصير[4]. في سنة 1483 أصدر الفاتيكان براءة تقضي بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش تشرف على شؤون الدين الكاثوليكي.

بفضل جهاز محاكم التفتيش أضحى الموريسكيون عبيدا بدون سيادة، و بدأت عمليات الإستيلاب الثقافي و التغريب بعد مصادرة أملاكهم، و تؤكد وثائق محاكم التفتيش أن روح المعاهدة التي بموجبها سقطت غرناطة (25 نوفمبر 21/1492 محرم 897ه)، لم تحترم بنودهاالتي وقعت بين الطرفين، بل سرعان ماتنكر لها الطرف المسيحي ، و بدأ المسؤولون السياسيون و الدينيون الأسبان، وهم المنغلقون دينيا و

---

(2) (لعبت محاكم التفتيش دور الحارس الأمين على المصالح الأسبانية و هي تلاحق الموريسكيين و تطاردهم أينما كانوا، و قد شبهها أحد الباحثين الإسبان ، بأنها كانت تمارس بيداغوجية الخوف و القهر. أنظر :

Bartolomé,Bennassar,l'inquisition espagnol XVé-XIXé siécle,Paris, Hachette,1979, pp.72-101

(3) بلغت البيبليوغرافيا الخاصة بدراسة محاكم التفتيش سنة 1963 حوالي 1950 عنوانا.

(4) Guy, Testas et jean Testas,L'inquisition, que sais-je,Paris,PUF,1983,p.7.

حضاريا على أنفسهم ، و المؤمنون بوجوب محاربة كل ماهو غير كاثوليكي، في عملية جديدة، تقضي باسترداد ليس المدينة فقط، بل أيضا بإسترداد روحي و حضاري لكافة سكان المملكة.

وصف ريشليو- كاردينال فرنسا و رئيس وزرائها في عهد لويس الثالث عشر- عمل اسبانيا في إبادة العنصر العربي الإسلامي في الأندلس و طرد جميع من تبقى منهم فيها عامي 1609و1614 بأنه أكثر ماعرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة و البربرية[5] .

يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر. فخلال المجلس الكنائسي الثالث في لتران Latranسنة 1179أصدر البابا ألكسندر الثالث أمراً بمتابعة المارقين و حجز ممتلكاتهم [6]. ويرجع تأسيس محاكم التفتيش بأسبانيا إلى عهد الملكيين الكاثوليكيين، إذ تحصلا على براءة من الفاتيكان فأنشئت محكمة التفتيش الأولى في اشبيلية سنة 1480

و بدأت مشروعها في قشتالة ضد اليهود المتنصرين فطاردت ألوفا منهم. و بعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين سنة 1502أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة. ففي وصية لفرديناندو إلى شارل الخامس نجده يأمره :« بضرورة اختيار محققين أكفاء و مخلصين للكاثوليكية وتضييق الخناق على طائفة محمد – عليه الصلاة و السلام- [7].

لقد وزعت محاكم التفتيش قائمة مفصلة لكل المظاهر التي تنبئ عن إتباع ملة الإسلام من طرف الموريسكيين، و فتح باب الوشاية بهم من طرف العناصر الأسبانية،و الجدير بالملاحظة أن أملاك الكنيسة ومحاكم التفتيش تأسست أساسا من الأحباس و الإستيلاء غير الشرعي لأملاك الموريسكيين.

---

[5] أسعد، حومد، محنة العرب في الأندلس،ط2،بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1988، ص 5.

[6] Guy Testas et jean Testas,L'inquisition,Que sais-je,Paris,P.U.F,1964,p.7.

[7] شارل، لي، العرب و المسلون بعد سقوط غرناطة،(تعريب: حسن سعيد الكرمي)،بيروت: منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، 1988، ص 125.

لهذا الغرض وزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر إتباع الدين الإسلامي للوشاية بأصحابها، وفيه:"

إذا تم الإحتفال بيوم الجمعة، إذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة...إذا تزوجوا على النهج المحمدي، إذا غنوا الأغاني العربية، ... إذا غسلوا موتاهم و لفوهم في كفن...إذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن أنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة..."[8].

و قد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهّمين الذي وقعوا في فخ الوشاية و الحقد والانتقام ، وحكم عليهم بالسجن و الجلد و الإسترقاق و التهجير. وكان من مظاهر مأساة الموريسكيين إجبارهم على تغيير أسمائهم العربية بأخرى مسيحية. و قد وجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش، بحث اكتشف أمر موريسكية و إسمها لويزا الأزرق التي اختلط عليها أسماء زوجها و أبنائها السبعة على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام أعضاء محاكم التفتيش فأرقت و هي حية[9].كما أصدرت محكمة التفتيش بغرناطة في سنة 1526البيان التالي:" نطالب من الآن فصاعداً كل الجراحين و الأطباء و الأشخاص المرخص لهم بألا يقوموا بقطع مقدم عضو أي شخص دون إذن من الأسقف أو الحاكم، و كل من يخالف ذلك يعرض إلى النفي من المملكة"[10].

لقد أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم و هويتهم الثقافية وذلك بالقضاء على نظامهم الإجتماعي انطلاقا من قمة الهرم، أي سحق الزعماء و المتضلعين في شؤون الإسلام.وبسبب تعنت الموريسكيين و تشبتهم بالهوية

---

[8] لوي ، كارديك، الموريسكيون الأندلسيون، المجابهة الجدلية(1492-1640)، (تعريب و تقديم: عبد الجليل التميمي)،تونس- الجزائر: الدار التونسية للنشر و التوزيع، 1989، ص ص 114-115.

[9] (أعمال المؤتمر العالمي للدراسات الموريسكية الأندلسية حول" دين و هوية الموريسكيين الأندلسيين و مصادر وثائقهم"، (تقديم: عبد الجليل التميمي)،تونس ، 1984، ج1، ص ص 59-69.

[10] (نفسه، ج2، ص 191.

الإسلامية، و رفضهم لكل محاولات الإدماج، الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي برودال يصر على :" أن المشكل الموريسكي هو صراع ديني ، و بمعنى آخر صراع حضاري، يصعب حله، فهو مدعوا لأن يستمر" [11].

كان دور المرأة الموريسكية أساسيا في رفض اندماج مجتمعها في المجموعة المسيحية،فقد لعبت دورا مشرفا، في مواجهة محاكم التفتيش، ذلك أنها مثلت الحارس المين للقيم و التقاليد الإجتماعية منها والدينية.

فإيزابال كالافار **Isabel Calavara** أحرقت لأنها لم تخبر عن والدتها و أختها،و هي في العشرين من عمرها، و من النساء من شنقن أنفسهن، أو رمين بأنفسهن في البئر، أو قطعن ألسنتهن كي لا يبحن بأسرار العائلة عند الاستنطاق و التعذيب [12] وفي البيت ، كانت المرأة الموريسكية ضامنة للطعام الحلال،

و إحياء الأعياد الدينية، و متكفلة بتعليم أبنائها تعاليم الإسلام. و في بعض الأحيان كانت تعقد اجتماعات سرّية في بيتها لتعليم القرآن و قواعد الإسلام مثلما فعلت خوانا لوبيز **Juana Lopez** [13].

بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش لغاية 1533 حوالي 3.3% . ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين و المعاقب عليها من طرف محاكم التفتيش إلى ما يأتي:

الوضوء- الطهارة- الصلاة- صوم رمضان – الاحتفال بيم الجمعة – عدم شرب الخمر – عدم أكل لحم الخنزير – قراءة كتب عربية – القول بأن الإسلام هو الأصلح – ختان الأطفال – الزواج على الطريقة الإسلامية [14].

و المتتبع لمسار سياسة محاكم التفتيش تجاه الجالية الإسلامية، يلاحظ تطبيق قوانين صارمة منها :

---

(11) Fernand,Braudel,La méditerranée et le monde méditerranéenne à l'époque de philippe II,Paris,Armand colin,2ed, 1966,T2,p.118.

(12) Jeanne , Vidal,Quand on brûlait les morisques(1544-1621),Nîmes,1986,p.165.

(13) لوي، كارديك، المرجع السابق، ص 72.

(14) الأرشيف الإسباني المتعلق بملفات محكم التفتيش بلنسية، قضية رقم : 799.

- منع الآباء من تلقين أبنائهم شعائر الإسلام.
- إجبار الصغار و الكبار على حضور الحفلات الدينية في الكنائس.
- تحويل المساجد إلى كنائس.
- إنشاء مفتشية ، تدقق في أموال و مداخيل الموريسكيين و عقاراتهم.
- مصادرة الكتب[15].

كما صدرت عدة إجراءات و تدابير، تتعلق بمحاولة إدماج الطفل الموريسكي في المجتمع الأسباني، و هي محاولات لقطع صلة الأطفال الموريسكيين عن هويتهم الإسلامية، و تتمثل في الأساس من:

- منع الموريسكيين من ختان أطفالهم.
- منع تسميتهم بأسماء عربية.
- تسليم الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات و خمسة عشر سنة إلى السلطات الإسبانية قصد تلقينهم مبادئ المسيحية[16].

ثانيا : التقية : أسلوب المواجهة الجديد

بعد عمليات التنصير القسّري (1502)، لجأت الجماعات الموريسكية إلى تأسيس جمعيات سرية،

و استمر الفقهاء في تأطير تنظيماتهم الاجتماعية، وكانت محاكم التفتيش في مقابل ذلك ترفض و بشكل قاطع كل أشكال الحوار و الجدال مع المسلمين. لذلك رخص

---

(15) بلقاسم ، درارجة :" الأندلسيون المسلمون و محاكم التفتيش"، في أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول (الذكرى الخمسمائة حول سقوط غرناطة 1492-1992)، تقديم: عبد الجليل التميمي، تونس ، 1993، ج2، ص 69.

(16) العروسي، الميزروري،" الطفل الموريسكي و أزمة هوية"، في أعمال المؤتمر العالمي السابع للدراسات الموريسكية الأندلسية، حول (العائلة الموريسكية: النساء و الأطفال)، تقديم : عبد الجليل التميمي، تونس ،1997،ص 54.

الإسلام للمسلمين بعدم إظهار الواجبات الدينية في ظروف قاهرة أو خشية مضرة كبيرة بالشخص[17].

ابتدع الموريسكيون أسلوبا جديداً لمواجهة المد المسيحي، يعتمد أساسا على مبدأ التقية، و قد عبر بهذا الصدد الشهاب الحجري الأندلسي: " و كانوا يعبدون دينيين : دين النصارى جهراً، و دين المسلمين في الخفاء (خفية) و إذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين، يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت... من عشرين سنة قبل خروجي منها ..."[18].

لقد احتار الموريسكيون في بداية الأمر في الكيفية التي يمارسون بها الشعائر الدينية وسط المجتمع الأسباني الضاغط، و تحت المراقبة الشديدة و المستمرة من طرف محاكم التفتيش. لهذا أجاز فقهاء الإسلام في عدوة المغرب للموريسكيين بممارسة العبادات سراً، ففي سياق الرد الذي جاء به الفقيه الونشريسي عن تساؤلات سكان غرناطة ، الذين سألوه عن احتمال رجوعهم إلى أرض الإسلام أو البقاء في دار الكفر(اسبانيا) مما جعل الفقيه يبيح العودة إلى دار الإسلام، و كأنه واجب ديني[19].وقد استغرب لوي كارديك من هذا التصريح و ألح على أنه خطأ كبير صدر

---

[17] هذا ماجاء مطابقا للآية الكريمة في قوله تعالى : " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان و لكن من شرح بالكفر صدر فعليهم غضب من الله و لهم عذاب عظيم" ، سورة النحل : الآية: 106.

[18] (أحمد بن قاسم،الشهاب الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين (تحقيق: محمد رزوق)،الدار البيضاء: دار الشروق، 1987، ص 21. راجع أيضا:ناصر الدين ،سعيدوني: من التّراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي،ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي،1999، ص ص 344-350.

[19] للمزيد من التفاصيل حول مفهوم التقية عند الموريسكيين يرجى العودة إلى: جمال ، يحياوي، سقوط غرناطة و مأساة الأندلسيين 1492-1610، الجزائر : دار هومة،2004.،284 ص.

من فقيه بوزن الونشريسي[20]. وهذه الفتوى كانت وراء تصاعد حدة التوتر بين الفئتين المسلمة و المسيحية ، خاصة فيما يتعلق باستعمال أسلوب التقية[21].

بقي الإسلام الخفي جاثما على أرض الأندلس يحمله جيل بعد جيل، على الرغم من وسائل الإرهاب و الإقصاء إلى غاية سنة 1614، و هذا يعني أن سياسة محاكم التفتيش و الكنيسة الرامية إلى تنصير الأندلسيين قد فشلت . حاول الراهب الإسباني بدرو لونقا **Pedro longas** دراسة عقيدة الموريسكيين و تحليل أركان الإسلام مع محاولته تحديد الأطر العامة للإسلام الخفي المتبع في اسبانيا من خلال وثائق محاكم التفتيش ، فوصل إلى تحديد أربع ركائز شملت مايلي :

- الخط السياسي المتبع من طرف الموريسكيين في المجال الديني مابين 1492-1614.
- تمسك الموريسكيين بممارسة شعائر الإسلام رغم مراقبة محاكم التفتيش لهم.
- اختلاف وضعية الموريسكيين زمانا و مكانا .
- عدم فعالية الوسائل التي استعملتها محاكم التفتيش لتحويل الموريسكيين إلى المسيحية [22].

لقد اعتبر الموريسكيون مبدأ التقية كموقف سياسي يواجهون به الظروف التاريخية الصعبة، وهذا ما أشار إليه جل الباحثين. و من أسباب استعمال التقية من طرف الموريسكيين في اسبانيا خلال القرن السادس عشر مايلي :

- تعنت محاكم التفتيش و رفضها لأسلوب الحوار و التسامح و التعايش.
- ازدياد الضغط الكنيسي على المسلمين بعد صدور مراسيم التعميد القسري.
- نقض بنود اتفاقية تسليم غرناطة (1492) و التي تعهد فيها الملكان الكاثوليكيان باحترام الحريات و الدين الإسلامي.

---

[20] لوي، كارديك ، المرجع السابق، ص 93.

[21] نفسه ، ص 94.

[22] بدرو ، لونقا، الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين(تعريب: جمال عبد الرحمن)، مراجعة: عبد الجليل التميمي، تونس، 1993، ص ص 40-42.

- الصفات القبيحة التي ألصقتها الكنيسة بالموريسكيين.
- تسامح الإسلام لأتباعه بالتستر في أداء الواجبات الدينية عند الشعور بالخطر.
- ظهور فتاوي تجيز استعمال التقية في الأندلس لأول مرة .

أصر الموريسكيون على استعمال التقية كأسلوب للدفاع عن الهوية الثقافية و الدينية، و هذا انطلاقا من التوجيه القرآني الذي يراعي اليسر و الآمان للمسلم و عدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة. ولهذا استعمل الموريسكيون الأساليب التالية :

- التحايل على رجال الكنيسة و عيون محاكم التفتيش.
- رفض العمل بالشعائر المسيحية جملة و تفصيلا.
- التمسك بالإسلام دينا و عقيدة.

إن الإلتجاء المستمر للتقية كان يمثل بالنسبة للموريسكيين خطر لا شك فيه، فتكرار حركات غريبة على الديانة المسيحية، يجعل أعين محاكم التفتيش تطارد بلا هوادة الموريسكيين.لقد حافظ الموريسكيون ، و إلى اللحظات الأخيرة، على فقهائهم و تنظيماتهم الدينية.و قد توبع الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش على الصوم، و الوضوء و الصلاة، و الصدقة و الحج.كما امتنع الموريسكيون بصفة عامة عن أكل لحم الخنزير و شرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم.

ثالثا : موقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية

تردد الأندلسيون في مسألة الهجرة أو البقاء في الأندلس، فعرضوا أمرهم على علماء المغرب قصد إيجاد حلول لمحنتهم. و مما لاشك فيه أن مسألة الهجرة كانت أعسر على اجتهاد فقهاء ذلك الزمان،و هي مشكلة بقاء جماعات إسلامية منقطعة تماماً عن بلاد الإسلام، داخل بلاد النصرانية،و لابد من أن نقرر أن المأساة لم تبدأ منذ سقوط غرناطة و إنما يوم خطا ألفونسو السادس ملك قشتالة و ليون خطوته الحاسمة التي قررت مصير الأندلس الإسلامي باستيلائه على إمارة طليطلة سنة 478هـ/1085م،إن استيلاء طليطلة تم بصورة سلمية نتيجة خيانة أميرها العجز الذي ابتلى به المسلمون في طليطلة هو عبد القادر بن ذي النون،ولم يقتصر الأمر على

سقوط طليطلة بل سقطت معها توابعها، ذكر ابن الكردبوس في كتابه الاكتفاء أنه سقط بسقوطها ثمانون منبراً[23].

1- فتوى الونشريسي:[24]

كتب الونشريسي الفتوى الأولى قبل سقوط غرناطة 1492 ، وذلك سنة 1484م، في شأن أندلسيين هاجروا إلى المغرب، و لم ترق لهم ظروف العيش،:" ندموا على الهجرة بعد حلولهم بدار الإسلام و سخطوا و زعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة و أنهم لم يجدوا بدار الإسلام التي هي دار المغرب...بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش..." [25]. وصرح آخرون منهم: " إن جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير إليه فنطلب منه أن يردنا إلى هناك"[26]. لقد رد الونشريسي على هذه المزاعم بقوله:"... أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... و لاتسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية(الملك) لعنه الله على معاقلهم و بلادهم إلا تصور العجز بكل وجه، و حال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع، قال تعالى:" إلا المستضعفين

---

[23] الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر و مايترتب عليه من العقوبات و الزواجر، تحقيق: حسين مؤنس،صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 5، العدد 1-2، 1957، ص ص 135-138.-

[24] أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، ولد حوالي 834هـ/1430م،عرف بفصاحة لسانه و براعة قلمه وشجاعته الأدبية،هاجر من فاس إلى تلمسان بسبب مجاهرته بالحق. تقلد بفاس الفتوى و التدريس و القضاء.، ألف العديد من التصانيف ، تم اغتياله من طرف محمد الشيخ لأنه رفض مبايعته سنة 1508م. للمزيد حول حياته، راجع : أبو القاسم ، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1998، ج1، ص ص 123-132. و أيضا :

ناصر الدين ، سعيدوني، من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي،1999، ص ص 277-289.

[25] أحمد، الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، (إشراف: محمد حجي)، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1981، ج2، ص 119.

[26] نفسه، ح2، ص 120.

من الرجال والنساء و الولدان لا يستطعون حيلة و لايهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يغفر عنهم، وكان الله غفورا رحيما"... و أما المستطيع بأي وجه كانت و بأي حيلة تمكنت، فهو معذور و ظالم لنفسه إن قام...[27].

كان الونشريسي صارما حينما صرح في حقهم:" ماذكرت عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام و سب دار الإسلام، و تمني الرجوع إلى دار الشرك و الأصنام،و غير ذلك من الفواحش المنكرة، التي تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا و الآخرة وينزلهم أسوأ المنازل، و الواجب على من مكنه الله في الأرض و سيره لليسرى،أن يقبض على هؤلاء، و أن يرهقهم العقوبة الشديدة، و التنكيل المبرح ضربا و سجنا، حتى لا يتعهدوا حدود الله، لأن فتنة هؤلاء أشد ضرراً من فتنة الجوع و الخوف نهب الأنفس و الأموال...[28].

هل كان على الموريسكيين أن يعلنوا تنصرهم و يخفوا إسلامهم ؟. فالنص الذي أجاب عن تساؤلات الموريسكيين، قد جعلت الونشريسي يستنج أن هجرة هؤلاء كانت للدنيا، و ليست للدين، بينما الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام واجب شرعي. لقد انتقد المؤرخ المصري حسين مؤنس هذه الفتوى، قائلاً: " فهذا الشيخ الذي تصدى لإبداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الأندلس، لم يكلف نفسه، عندما جلس يكتب هذه الفتوى ، عناء البحث عن أحوال من يفتي فيهم، و يتقصى أخبارهم، ويعرف الأسباب التي تضطرهم إلى البقاء في الأندلس، و تحول بينهم و بين الهجرة إلى المغرب.[29].

و يضيف حسين مؤنس في موضع آخر: " و قد فاته (الونشريسي) أن ضعاف الناس أكثر من الأقوياء، و أن العاجزين عن الرحلة و الهجرة هم الغالبية العظمى... لقد كان لفتوى الونشريسي و أمثالها أسوأ الأثر على مصير الجماعات الإسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر و مقيمة في الجحيم الذي كانت تعانيه..".[30].

---

(27) نفسه، ج2، ص ص 121-122.

(28) نفسه، ج2، ص 132.

(29) حسين، مؤنس، المقال السابق، ص ص ص 133-134.

(30) نفسه، ص ص 144-147.

بالرغم من انتقادات حسين مؤنس للفقيه، و اتهامه بقصر النظر في إصدار حكم قاسي على مسلمي الأندلس في مثل هذه الظروف الحرجة، و أنه لم يكن في موقع تقصي الحقائق لإصدار حكم شرعي بخصوص هجرة الأندلسيين.فإن بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة و صدور قرارات التعميد الإجباري أصبحت أرض كفر و حرب،و أصبح من الصعوبة بمكان على المسلمين هناك تأدية شعائر الإسلام بكل حرية.

2 – الفتوى الثانية:

وجه الونشريسي الفتوى الثانية سنة (901هـ/1495م) ، في شأن أحد الأندلسيين الذي أراد البقاء في الأندلس لمؤازرة إخوانه المسلمين لدى السلطات الأسبانية: " يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يتعرض لهم من نوائب الدهر، و يخاصم عنهم، و يخلص كثيراً منهم من ورطات عظيمة بحيث يعبر عن تعاطي ذلك عنهم... و بحيث يلحقهم في فقده ضرر كبير إن فقدوه...[31].وكان رفض الونشريسي في هذه المسألة واضحا : "لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة... لا تجوز و لا تباح، لما تنتجه من الأدناس و الأوصار، و المفاسد الدينية و الدنيوية..."[32].

لقد بين الونشريسي في فتواه صعوبة القيام بشعائر الإسلام في وسط البيئة المسيحية المعادية لكل ماهو مسلم، قائلا : " ... فكيف يتوقف متشرع أو يشك متورع في تحريم هذه الإقامة مع استصحابها لمخالفة جميع القواعد الإسلامية الشريفة...[33].

من خلال هذه النوازل يتضح أن الونشريسي أكد على مبدأ وجوب الهجرة لإرتباطها بالعقيدة الإسلامية و الحفاظ عليها من الشرك و التضليل و الردة بفعل الضغوطات و التنكيل المسلط من قبل محاكم التفتيش زمنئذ. والظاهر أن الفقيه لم يتصور حدوث هذه الظاهرة الدفاعية في وسط بيئة مسيحية معادية، لم يسبق وأن أبدى فيها فقهاء الإسلام برأيهم. عندما ندقق في حكم الهجرة الصادر عن الونشريسي يصرح بأن دخول بعض المسلمين تحت حكم النصارى أمر لم يعرفه المسلمون إلا

---

(31) نفسه، ج2، ص 137.

(32) نفسه، ج2، ص 138.

(33) نفسه، ج2، ص 139.

في القرن الخامس الهجري بعد استيلاء النرمانيين على صقلية، لذلك لم يتعرض جمهور الفقهاء لمسألة الهجرة من قبيل هذه المشكلة. و الواقع أن هذا الكلام يدل على علم قليل بتاريخ الإسلام، و هذا الإهمال عرفه علماء المشرق و المغرب معاً.ففي أثناء الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية لم يخل الأمر بين حين و حين من أن تقع بعض بلاد الإسلام في أيدي غير المسلمين[34].

3 – فتوى المغراوي[35] بعث مفتي وهران أبي جمعة المغراوي، فتواه إلى مسلمي غرناطة الذين فرض عليهم التنصير الإجبارب و منعوا من تأدية شعائر الإسلام، حيث شملت فتواه خطابا شاملاً لقواعد الإسلام و فيه تشجيع صريح للموريسكيين على التمسك بأركان الإسلام ، و العمل بها: " الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيدالله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار

---

[34] في أيام المهدي العباسي استولى الروم على الحديثة و حكموها أعواما حتى استردها المسلمون أيام الهادي. للمزيد راجع: حسين ، مؤنس، المقال السابق، ص ص 134-137.

[35] نشر نص هذه الفتوى في الدراسات التالية :

محمد عبد الله، عنان، نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين، ط4، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1987، ص ص 342-344.

بدرو، لونقا، المرجع السابق، ص 198.

Jean,Cantinean, »lettre du Mofti d'Oran aux Musulmans d'Andalousie »,in,Journal asiatique,CCX,Janvier-/Mars ,1927,PP.5-13.

ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس."[36].

و عليه فإن المغراوي دعى الموريسكيين إلى استعمال الإسلام الخفي في إطار مبدأ التقية، لأن الله عز وجل سمح للمؤمنين بذلك، و قدم المغراوي حلولاً مناسبة تساعد الموريسكيين على ممارسة أركان الإسلام خفية من النصارى: "... وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لايضر ولاينفع وان الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لاينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شجر مما يتمّم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كانلغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لابنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيّرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أوحرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلاّ روؤس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن اكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان

---

[36] محمد عبد الله، عنان، المرجع السابق ، ص 343.

ان نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين انه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفى بالصلب فانووا من الوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ومايعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً .بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى"[37].

أثارت المؤرخة السورية ليلى الصباغ في بحثها عن فحوى فتوى المغراوي إلى وجود ثلاث نقاط هامة :

1 – لاحظت وجود عدة ثغرات في الفتوى التي حللت و حققت أربع مرات، عند ترجمتها إلى اللغتين الإنجليزية و الفرنسية، فجل التعابير المستعملة لم توضح مدى عمق تمسك الموريسكيين بدينهم..

2 – لم يقارن الباحثون بدقة بين النسخ الثلاث للفتوى، و أن هناك اختلافات بين النسخة العربية ونسختي الألخميادو[38].

3 – وجود هفوات في الترجمة التي تعرضت لها الفتوى.[39]

لقد جاءت فتوى المغراوي مدعمة لبقاء الأندلسيين الضعاف بأرضهم و التمسك

---

(37) نفسه .

(38) ترك الموريسكيون تراثا فنيا يسمى الأدب الألخميادو عمد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة خاصة و جديدة تعد من ابتكار الموريسكيين، و اعتمد الحرف العربي كإطار خارجي عوض الحرف اللآتيني. و تضمنت الكتابات الألخمیادية مايلي :

- كتابات جدلية دينية.
- كتابات فقهية.

- للمزيد راجع: حنيفي هلايلي : "الحرف العربي تعبير مقدس في النصوص الألخميادية الموريسكية"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد الأول، جامعة وهران، جوان 2003، ص 64-75.

بدينهم على الطريقة الموريسكية، و المتمثلة في اعتناق المسيحية ظاهراً و بالإسلام باطنا، فإبطان الإسلام في القلب قد لاتتفق إلى ماذهب إليه الونشريسي في فتاويه الصادرة بخصوص مسألة الهجرة.

و الحقيقة أن المغراوي تساهل مع مسلمي الأندلس، انتظاراً للفرج، و قد أوضح في فتواه أن المسلمين يعيشون غرباء[40] في الأندلس بعد سقوط غرناطة.

يلاحظ في آخر الوثيقة (رسالة المغراوي) أن الآمال كانت معلقة آنذاك على الدولة العثمانية في تخليص الأندلس و إعادة فتحها. و في الوقت نفسه كان مسلمو الأندلس ينتظرون الخلاص من العثمانيين الذين كانت محاولاتهم عديدة بفضل جهود البحرية الجزائرية منذ عهد خير الدين بربروسة إلى البيلرباي قليج علي باشا.

و عليه فإننا نلاحظ عدم تعارض جوهر كلا الفتوتين من حيث المبدأ الفقهي، بحيث جاءت فتوى المغراوي مكملة و متممة لفتوى الونشريسي . فالمغراوي قدم الحلول المناسبة لمسلمي الأندلس للتكيف مع الأوضاع الراهنة، بينما أباح الونشريسي للمستضعفين البقاء المؤقت، و استعمال التقية (الإسلام الخفي.

إن المساجد السرية و الفقهاء كانت بمثابة أعمدة الحياة الدينية في المجتمع الموريسكي، حيث أصبحت العبادات تمارس سراً داخل البيوت.كان الموريسكي متمسكا بصلاته إلى أقصى حد ممكن، مارسها و هو في السجن و هو تحت التعذيب،

---

(39) Leila,Sabbagh, »La religion des morisques entre deux fatwas »,in, »les morisques et leurs temps »,Montpellier,juillet,CNRS,Paris ,1983,PP.45-50.

(40) الغرباء في قاموس اللغة تعني الأباعد، و تعني المنفيين الذين يشعرون بالغربة في مجتمع مغاير لهم في الحياة اليومية و الدينية. وهذا الوصف ينطبق على الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، أما تسمية الغرباء فأطلقها الموريسكيون على أنفسهم أثناء نداء الاستغاثة الموجه إلى السلطان العثماني سليمان القانوني(1520-1566) في عام 1541. كما أطلقها عليهم الفقيه المغراوي تنزيها لهم عن اسم الموريسكيين. للمزيد راجع :

حنيفي، هلايلي " الأندلسيون في فكر أحمد المقري: أزهار الرياض و نفح الطيب نموذجا"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 16، جوان 2004، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص ص 107-123.

و هو ذاهب إلى الحرق، و كثيراً ما اكتشف من طرف جواسيس محاكم التفتيش و هو يمارس الصلاة.

بعد سقوط غرناطة على يد الملكين الكاثولكيين عام 1492م بدأت مرحلة من الحياة المليئة بالمصاعب و المتاعب بالنسبة للمسلمين، فتحول التسامح إلى مواقف عدائية و عنصرية و قد ظهرت تلك المعاملة بصورة قوانين فرضت الإرتداد الإجباري عليهم و حكمت على غير الراغبين بالطرد من الأندلس و خلال قرن من الزمان تظاهر قسم كبير منهم بالنصرانية و سموا بالموريسكيين و كانوا بالسر يمارسون الشعائر الإسلامية ، وكانوا أبطال كفاح أليم من أجل الحفاظ على هويتهم ضد سياسة الاحتواء من قبل المملكة الإسبانية و محاكم التفتيش.

إن تاريخ الأندلس و فهم أحداثه و تفاعلاتها و مسبباتها بالإضافة إلى دراسة الآثار التاريخية التي تظهر كشواهد ملموسة على مرور الزمن يؤدي ذلك إلى تكوين رؤية واضحة لجوهر حضارتنا الإسلامية عبر عصور ازدهارها، كما يفضح حقيقة الحضارة الغربية القائمة على التسلط و القهر و الإكراه، و التي كان من أوائل ضحاياها شعب الأندلس المسلم، الشعب الذي استمدت من جهوده عناصر الحضارة عندما أنارت الأندلس أرجاء أوروبا المظلمة، و لايزال الغرب منذ تلك العصور و حتى اليوم يصور المسلمين والإسلام بأبشع الصور، و يشن عليهم الحرب بمختلف الأساليب.